**سبل صيانة وتثمين التراث اللامادي بواحات درعة الوسطى**

تزخر واحات درعة الوسطى[[1]](#footnote-2) بتراث شفوي غني ومتنوع يعكس خبرة السكان ويعطي فكرة عن التنظيم الاجتماعي ونمط عيش هذه الساكنة، وبالتالي فهو بمثابة ذاكرة جماعية وسجلا حيا لتاريخ المنطقة وجب المحافظة علية وصيانته. لكن هذا التراث الشفوي المكون أساسا من من حكايات وأمثال وقصص وفنون غنائية...، مهددة بالاختفاء و الانقراض إذا ما لم يتم تدرك ما تبقى منه.

من هذا المنطلق يكتسي موضوع التراث اللامادي وسبل المحافظة عليه وتثمينه أهميته وراهنيته في البحث والدراسة، فالإبداعات الشفوية للمجتمع الواحي لا تكشف لنا عن المهارات الجمالية والفنية التي اكتسبها الإنسان عبر الزمن في تفاعله مع المجال ومحيطه البيئي، بل تعبر بجلاء عن جوانب عديدة في حياة الناس؛ فتكشف عن الأبعاد الاجتماعية و الثقافية للمجتمع الذي أنتجه، كما تكشف عن نمط العيش وما يتحكم فيه من جوانب ثقافية واجتماعية بل وحتى اقتصادية في بعض الأحيان.

وسنحاول في هذه المداخلة دراسة نماذج من الرقصات والفنون الشعبية لقبائل درعة، كنموذج لهذا التراث اللامادي الغني والمتنوع الذي تزخر به المنطقة.

**I ـ الفنون الغنائية لقبائل درعة : نتاج سيرورة تاريخية وتفاعل مع المجال**

ساعد الموقع الاستراتيجي الذي تحتله واحات درعة على مشارف الطريق التجارية التي تربط بين مراكش و السودان الغربي، من استقطاب مجموعات بشرية متنوعة. حيث استوطنت بالواحة منذ العصور القديمة إلى غاية القرن السابع الهجري / 13م قبائل وإثنيات عديدة، تتكون بالأساس من "الحراطين" أو "دراوة" ؛ وهي عناصر توافدت على بلاد درعة منذ القرون الأولى للميلاد، بل هناك من المؤرخين من يرجع ذلك الإستطان إلى ما قبل الميلاد، و شاركتها سكنى هذه الواحات قبائل أيت عطا وقبائل أيت سدرات الأمازيغيتين، وقبائل بني معقل العربية؛ وهي قبائل مترحلة طارئة على المنطقة اجتاحت واحات وادي درعة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري / 13م .

هذا التنوع في أصول القبائل والإثنيات التي استوطنت بدرعة وتعايشها أدى إلى غنى و تنوع تراثها الغنائي،فكل قبيلة تنفرد بفنون ورقصات غنائية خاصة بها تميزها عن غيرها، فيوجد بالمنطقة أكثر من عشرين لونا غنائيا وهو عدد مهم يعكس الغنى الثقافي لهذه الواحات[[2]](#footnote-3). هذا التنوع ينعكس أيضا على الآلات الموسيقية المستعملة التي تتجاوز الأربعة عشر آلة، كما يوضح الجدول التالي:

**جدول للفنون الغنائية بالواحات والآلات المستعملة والقبائل الممارسة**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الفن الغنائي | القبيلة الممارسة | الآلات المستعملة |
| الركبة | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) | الطبل |
| الصف | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) |  |
| الهرمة | القبائل العربية المعقلية (الروحا - ولاد يحيى – الكرازبة – أولاد عيسى) | الطبل |
| سنيسلة | القبائل العربية المعقلية (الروحا - ولاد يحيى– كرازبة – أولاد عيسى) |  |
| الوسطي | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) | غياب الآلة |
| المشاط | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) | البندير – الطارة[[3]](#footnote-4) - السينية |
| الترواح | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) |  |
| الطحاني | القبائل العربية المعقلية (الروحا و ولاد يحيى) | الطبل |
| أحيدوس | قبائل ايت عطا الأمازيغية | البندير |
| أحواش | القبائل الأمازيغية المستقرة | البندير – الطارة – الدندون - الناقوس |
| كناوة | العبيد | البندير – الداندون[[4]](#footnote-5) - القراقب |
| دقة السيف | القبائل المستقرة (ضراوة) | الدف – العوادة (الناي) – الطارة – الطعريجة - السيف |
| أقلال | القبائل المستقرة (ضراوة) | الطارة - الطعريجة |
| الوكدي[[5]](#footnote-6) | القبائل المستقرة + القبائل العربية المعقلية | غياب الآلة |
| الكدرة | قبائل عريب | الكدرة |
| الشمرة | قبائل عريب | الكدرة |
| الحضرة | زوايا المرابطين (أكرام) | الطارة |
| جلالة | زوايا المرابطين (أكرام) |  |

هذه الفنون الغنائية المتعددة والمتنوعة هي مجالا للتعبير عن ما يخالج النفس من آمال وفرح وحزن ...، وتتويج لمسار طويل من احتكاك الإنسان الواحي بمحيطه وتفاعله مع مجاله بغية تطويعه وضبطه، فكان نتيجة هذا التفاعل غنى وتنوع التعابير الفنية التي تخاطب الطبيعة والروح. وبالتالي فهي مقام احتفالي بالدرجة الأولى، وأداء جماعي لا يعترف بالمنصة، كما أنها في الوقت نفسه فرصة لأفراد القبيلة رجال ونساء شيوخ و أطفال شباب وكهول للترويح عن النفس بعد سنة من العمل في الفلاحة، فبعد فصل الخريف تجمع المحاصيل الزراعية من ثمر وقمح وحناء... وتقام المواسم والأعراس التي تكون مناسبة للإحتفال و أداء مختلف هذه الفنون الغنائية.

وقد تكون أيضا فرصة للخروج من القنط واليأس الذي قد يصيب الجماعة جراء انحباس المطر وضعف المحصول، فيلجأ الإنسان الدرعي إلى الإحتفال لكن احتفالاته تكون ممزوجة بالمنجاة والتوسل من العلي القدير لذهاب الجفاف وقدوم الأمطار.

**ـ في الحاجة إلى تثمين التراث الشفوي بواحات درعة الوسطى**

إن التراث الشفوي الدرعي يمثل قيمة في حد ذاته فهو إنتاج الساكنة عبر الأجيال و في مختلف مجالات الحياة، و من خلاله أكد وجوده على مر العصور و رغبته في أن يحيى حياة كريمة، وسجل صراعه من أجل تغيير الواقع المعيش وتطويره سعيا إلى التقدم والإزدهار[[6]](#footnote-7)، وبالتالي فهو بمثابة ذاكرة جماعية وسجلا حيا لتاريخ المنطقة وجب المحافظة علية وصيانته.

**1 ـ أهمية تدوين التراث الشفوي.**

تأسيسا على ما سبق تأتي أهمية تدوين وتثمين التراث الشفوي لاعتبارات التالية:

**أولا** - الحفاظ على هذا التراث الشفهي هو تكريم للإنسان الذي أبدعه[[7]](#footnote-8)، والبقاء عليه هو إغناء للثقافة الإنسانية جمعاء، ذلك أن "تنوع الثقافات والحضارات يغني الثقافة و الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل بل إن الحضارة التي تعتمد على التنوع الثقافي في داخلها مرشحة للقيام بعملية التطور والابتكار"[[8]](#footnote-9). فالحفاظ على التراث الشفوي أمر في غاية الأهمية؛ لأن هذه المصادر تشكل جزءا مهما من ذاكرة سكان الواحة لما تحتويه من قيم ثقافية واجتماعية، وهي مهمة أيضا من ناحية التطوير الاقتصادي للمنطقة خاصة إذا ما تم استغلالها وتوظيفها بالشكل الجيد.

**ثانيا** - التراث الشفوي قد يشكل مادة مصدرية؛ يمكن للباحث و المؤرخ أن يقوم بدراستها للتعرف عن البنية الاجتماعية والسياسية لمنطقة درعة، على اعتبار أن هذا التراث الشفوي هو تعبير عن واقع مادي معين تحكمه مبادئ وتوجهات خاصة لا تنبعث عن فراغ.

**ثالثا** - تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية وانفتاح البادية على محيطها (المدينة) أدى إلى تغير نمط العيش لأغلب الساكنة، الشيء الذي أثر سلبا على الأنظمة السائدة و البنيات الثقافية التقليدية التي تشكل عمق الحضارة الدرعية، فمثلا الأعراس لم تبقى على ما كانت عليه في السابق، حيث تقلصت المدة من سبعة أيام إلى يومين أو ثلاثة، بالإضافة إلى أن قيم التضامن لم تبقى كما كانت عليه.

**رابعا**- تقلص عدد الشيوخ المبدعين للقصائد وقلة التلمذة، فأغلب الشباب لم يعود مهتمين بالفنون الغنائية وأصبحوا يرونا فيها مجرد تقاليد متجاوزة. ينظاف إلى كل هذا أن الغناء لم يعد حاجة طبيعية تقتضيها العادة والعرف بل أصبح يؤدى تحت الطلب.

**خامسا**- قلة الدراسات والأبحاث حول التراث الشفوي، اللهم إذا استثنينا بعض الملتقيات المناسباتية وبعض البحوث الجامعية التي تحتاج إلى تأطير منهجي وعلمي.

كل هذه العوامل أصبحت تسير في اتجاه محو ما ركمته هذه القبائل من تراث شفوي عبر السنين. الشيء الذي يهدد الرأسمال الثقافي للأجيال القادمة.

**2 ـ سبل تثمين التراث الشفوي بدرعة**

إن عملية رد الإعتبار لهذا الإرث الشفوي لواحات درعة ليست عملية من عمليات الحفاظ على التراث فحسب، وإنما هي عملية حيوية بالنسبة لمستقبل هذه الحاضرة الضاربة في أعماق التاريخ. لكنه في الآونة الأخيرة أصبح مستقبل هذه الفنون الغنائية التي تعكس تاريخ وهوية الساكنة ، مهدد ومحل تساؤل مقلق للغاية. لذلك فإن رد الاعتبار لهذا الموروث الشفوي للواحة يجب أن ينطلق من نظرة شمولية ومخطط تشاركي، يساهم في صياغته وتنفيذه الجميع؛ من ساكنة محلية و مجتمع مدني وجماعات محلية و وزارة الثقافة وزارات والسياحة الوكالة الوطنية لتنمية مناطق الواحات وشجر الأركان... يكون الهدف هو استغلال كل الفرص المتاحة من أجل تثمينه، خاصة استثماره في السياحة الثقافية والأنشطة الاقتصادية المدرة للدخل.

ولرد الاعتبار لهذا التراث نقترح الإجراءات التالية:

* إنشاء مركز للدراسات والأبحاث للتراث الشفوي؛ تكون مهمته هي جرد وتوثيق وتصوير مختلف عناصر التراث الشفهي الموجودة بالواحات، و جمعها في دليل علمي يكون في متناول الباحثين، بالإضافة إلى جمع بيبلوغرافية شاملة لما كتب عن التراث الشفوي لهذا المنطقة، والسهر على عقد ندوات علمية لتعميق البحث حول هذا الموضوع.
* إقامة مهرجانات للتراث الشفوي تكون مناسبة للقبائل لتقديم إبداعاتها، مع تخصيص جوائز للفرق والقبائل التي تهتم بالأصالة والإتقان في الأداء.
* الدعوة إلى تبني سياسة إعلامية مهتمة بالشأن الثقافي، والبحث عن السبل الناجعة للإدماج السلس لهذا التراث في إطار مقاربة تنموية مستدامة تراعي حقوق الأجيال القادمة في الاستفادة من مورثهم الثقافي، وتدعيم ذلك بالاهتمام الكافي بالمناهج التربوية وجعل التراث الشفوي في صلبها[[9]](#footnote-10).
* العمل على وضع إطار قانوني لحماية التراث الشفوي، وذلك بالعمل على إعداد وإخراج قانون ينظم الفنون والرقصات الشعبية، يكون مرجعا لكل القبائل والفرق الممارسة لهذه الفنون، لأنه في ظل غياب هذا القانون المنظم فإن مستقبل التراث الشفوي بالواحات مهدد بالاختفاء.
* التعريف بالواحة كتراث وطني؛ و هذا يستلزم بالضرورة إدراج واحات درعة ضمن لائحة التراث الوطني، لأن هذه الأخيرة أصبحت مزارا سياحي مهما وتستقطب العديد من السياح. هذا بالإضافة إلى السعي إلى ربطها في مدار سياحي يضم بالإضافة إلى واحات درعة، واحات الجنوب الشرقي (الرشيدية وفيكيك) وواحات تودغة ودادس، لأن هذا من شأنه أن يخرج الواحة من عزلتها.
* العمل على تقوية اقتصاد الواحات؛و يقتضي هذا بالضرورة انجاز مشاريع ذات طابع اقتصادي يكون الهدف منها تنمية الواحة وتشغيل شبابها، ومساعدة الساكنة على الاستقرار والاستثمار في الواحة، لأن تأهيل هذا المورث و توظيفه من شأنه أن يكون مدخلا للتنمية الاقتصادية و عاملا من عوامل انقاد الواحة واستمرار دوامها.
* صياغة مخطط وطني يهدف إلى رد الاعتبار للتراث الشفوي؛فالإمكانيات التي تتوفر عليها الواحة لا تؤهلها لكي تقوم بتأهيل التراث الشفوي الغني والمتنوع الذي تزخر به، لذلك وجب صياغة مشاريع تشمل واحات درعة ككل، وتكون ضمن أولويات الدولة والقطاعات المعنية، مع ضرورة اشراك الساكنة والمجتمع المدني.

تأسيسا على ما سبق يتضح أن واحات درعة الوسطى تزخر بتراث شفوي عريق ومتنوع، يعكس التنوع الإثني والقبلي لهذه الحاضرة الضاربة في أعماق التاريخ. لكنه في الآونة الأخيرة أصبح مستقبل هذه الفنون الغنائية التي تعكس تاريخ وهوية الساكنة ، مهدد ومحل تساؤل مقلق للغاية. وبالتالي فإن مسألة الحفاظ وتثمين التراث الثقافي عامة والتراث الشفوي بصفة خاصة، للواحات موضوع الدراسة؛ مسألة أصبحت تتعدى اختصاصات وإمكانيات قطاع بعينه؛ فتضافر جهود كل المعنيين أضحى أمرا حتميا سواء تعلق الأمر بالمتدخلين الرسميين أو الخواص أو بمختلف فعاليات المجتمع المدني. فحماية هذا التراث إذا مسؤولية جماعية يشترك فيها الجميع؛ الدولة بتشريعاتها ومراقبتها و المجتمع المدني بالتحسيس والتوعية. ولا شك أن تضافر الجهود بين كل هذه الأطراف من شأنه تجاوز كل الإكراهات والمخاطر التي يعاني منها هذا التراث الغني والمتنوع.

**بيبلوغرافيا:**

**ـ أحمد البوزيدي " التاريخ الاجتماعي لدرعة : دراسة في الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية من خلال الوثائق المحلية" آفاق متوسطية الدار البيضاء 1994.**

**ـ ادريس كرم، الآداب الشعبي بالمغرب؛ الأدوار والعلاقات. الطبعة الأولى 2004.**

**ـ جمال عليان، "الحفاظ على التراث الثقافي" سلسلة عالم المعرفة، العدد 322. دجنبر 2005.**

**ـ محمد البوزيدي، "الفنون الغنائية بواحات وادي درعة". منشورات الثقافة الجنوبية، 2012.**

**ـ أعمال ندوة؛ حوض درعة ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة ابن زهر، اكادير. 1992.**

**ـ أعمال ندوة "التراث الثقافي المادي بجهة سوس ماسة درعة". منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2013.**

**ـ أعما ملتقى رقصات الواحات الأول، "أغاني ورقصات الواحات الدرعية". منشورات جمعية تنمية وادي درعة.2005.**

**ـ "درعة تاريخ وتحولات"، منشورات المجلس البلدي لزاكوة، 2007.**

**ـ " الصحراء جدلية الإنسان والمجال" منشورات جمعية الشعلة للتربية والثقافة فرع بوجدور. الطبعة الأولى 2013.**

**ـ هكذا تكلمت درعة (مشروع توثيق التراث اللامادي بواحات وادي درعة)، منشورات القصبة. الطبعة الأولى 2013**

1. ـ هذه الواجات الست من الشمال إلى الجنوب هي: مزكيطة، تينزولين، ترناتة، فزواطة، لكتاوة ثم واحة محاميد الغزلان. [↑](#footnote-ref-2)
2. ـ أحمد توفيق الزنيبي، أغاني ورقصات الواحات الدرعية: معطيات عامة. ضمن كتاب "أغاني ورقصات الواحات الدرعية"، أعمال ملتقى ورقصات الواحات الأول. منشورات جمعية تنمية وادي درعة.2005، ص 7. [↑](#footnote-ref-3)
3. ـ الطارة: اطار خشبي دائري يغلف من جهة واحدة بجلد الماعز أو الغنم، ويمد على الجلد وتران يصنعان من الأمعاء الحيوانية لتصدر اهتزازات صوتية موافقة للإطار العام للرقصة. تتميز بحجمها الكبير خلاف البندير الذي غالبا ما يكون بحجم صغير أو متوسط. [↑](#footnote-ref-4)
4. ـ الداندون طبل كبير الحجم يحمل على الأكتاف بواسطة حبل يربط بين أطرافه. [↑](#footnote-ref-5)
5. ـ الوكدي كلام موزون دو معاني عميقة يردده رجل أو امرأة، يشيدون من خلاله بأهل العرس ولقبيلة. [↑](#footnote-ref-6)
6. ـ محمد المصدياني، البعد الوطني في الأغنية الدرعية. ضمن كتاب أغاني ورقصات الواحات الدرعية، أعمال ملتقى ورقصات الواحات الأول. منشورات جمعية تنمية وادي درعة.2005، ص 28. [↑](#footnote-ref-7)
7. ـ ابراهيم بواغضن، "نحو إستراتيجية جهوية للتنمية الثقافية والمحافظة على التراث"، ضمن كتاب "التراث الثقافي المادي بجهة سوس ماسة درعة". منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2013. ص 223. [↑](#footnote-ref-8)
8. ـ جمال عليان، "الحفاظ على التراث الثقافي" سلسلة عالم المعرفة، العدد 322. دجنبر 2005. ص 72. [↑](#footnote-ref-9)
9. ـ الطالب بويا ماء العنين، الشأن الثقافي الحساني بين معوقات الترسيخ وآليات النهوض. ضمن كتاب " الصحراء جدلية الإنسان والمجال" منشورات جمعية الشعلة للتربية والثقافة فرع بوجدور. الطبعة الأولى 2013. ص 294. [↑](#footnote-ref-10)